مشاهد مصر وفلسطين من الجو

اعظم الرحلات الجوية الحديثة

للسر الان كوبهام الطيار الانكليزي المشهور

كانت الحلقتان الاوليان في هذه السلسلة لاثنين من اشهر طياري المعمورة هما الجنرال فوتي زميل امندسن في رحلة البلون فورج (مقتطف يناير وفبراير ١٩٢٨) . والثاني انكومندر برد اول من بلغ القطب الشمالي عن طريق الجو واحد ابطال الطيران في اميركا (مقتطف مارس وابريل ١٩٢٨) . وهذه الحلقة الثالثة لاشهر طياري الانكليز السر الان كوبهام لخصناها عن المجلة الجغرافية الاميركية الاهلية

١

أتيح لي في السنوات السبع الاخيرة من حياتي ان ازور كل عاصمة من عواصم الممالك الاوربية وان اخترق القارة الافريقية من شمالها الى جنوبها ومن شرقها الى غربها وان اجتاز البادية السورية الى العراق فالهند فبرما ومنها الى استراليا عن طريق رانغون وسنغافوره وجزائر الهند الشرقية. ومع ذلك لم امتط سفينة بخارية في اثناء تلك الرحلات الا في اواخر سنة ١٩٢٧ حين زرت الولايات المتحدة الاميركية. لان كل رحلة رحلتها في السنوات المذكورة كانت على متن الطيارات . واشعر الآن ان ما احفظهُ من ذكريات الاماكن التي زرتها او طرت فوقها اكثر وضوحاً من ذكريات مسافر عادي يتطلي باخرة اوقطاراً او سيارة

ففي اوائل سنة ١٩٢٣ رحلت رحلة طويلة قطعت في اثنائها نحو ١٢ الف ميل على سبيل النزهة فزرت كثيراً من بلدان اوربا ومصر وفلسطين والجزائر ومراكش . وكان رفيقي فيها صديق قديم اولع بالسفر الجوي لانهُ يحببهُ من اجلّ الوسائل لدرس الحضارات القديمة وآثارها

قمنا من لندن الى باريس ثم اخترقنا فرنسا الى شاطئها الفيروزي Cote d'Azur فطرنا فوقهُ الى ايطاليا ومنها الى بلاد اليونان فتسنى لصديقي ان يشاهد معاهد الخرافات اليونانية والرومانية ونحن سائرون فوقها من برندزي الى كورفو الى خليجي بتراس وكورنثوس الى اثينا . من اثينا اجتزنا البحر المتوسط الى الشاطئ الافريقي الى مصر ولما

كنا في مصر عزمنا ان نطير من شرق افريقيا الى غربها فقمنا من مصر الى مراكش في مراحل كثيرة كما يجيء ثم اجتزنا بوغاز جبل طارق الى اسبانيا ومنها عدنا الى فرنسا فانكلترا

رأينا اكثة الاكروبلس اولاً من الجوّ فكان منظرها رائعاً. ولبثنا في العاصمة اليونانية بضعة ايام شاهدنا في اثنائها البارتنون والستاديوم الجديد وهو الملعب الذي بني على انقاض الستاديوم القديم حيث كانت تقام الالعاب الاولمبية . ولما اكملنا عدتنا للطيران من بلاد اليونان الى افريقية اصبحنا في اليوم التالي والجوّ صافٍ كعين الديك فطرنا فوق جزائر بحر ايجه وهي كالجواهر ترصّع سهلاً من الفيروز ثم مررنا فوق جزيرة كريت حيث ولد اول الطيارين في التاريخ

ففي الخرافات القديمة ان طائرين يدعيان ديدالس وايكارس صنعا اجنحة من الريش وحلقا في الجوّ فوصل ديدالس الى جزيرة صقلية طائراً واما ايكارس فهزه الفوز بالطيران فحلّق في الجوّ حتى اقترب من الشمس فذاب الشمع الذي شُدَّ به الريش الى الجناح وهبط الطيّار في البحر . ولحسن الحظ لم نصب بما اصيب به ايكارس

فاننا غادرنا جزيرة كريت وراءنا حين اتجهنا الى السلّوم معتمدين على البوصلة المغنطيسية وبقينا طائرين ثلاث ساعات لا نرى الاّ الازرقين السماء والماء حتى تراءى لنا الشاطىء الافريقي عند الافق فالتزمنا السير في خط مستقيم حتى بلغناهُ فاذا نحن على ميل واحد من السلوم التي سدّدنا مقدم طيارتنا اليها . وهي مركز من مراكز الحدود المصرية على حدود الصحراء الليبية فرحب بنا مأمور المركز ودعانا الى العشاء فاجتمعنا عنده يحافظ الصحراء الغربية وفي السهرة دار الحديث على مشاقّ الرحلة في الصحراء وذكر الحاكم انهُ مقبل في الغد على رحلة مضنية الى واحة سيوه تستغرق مسيرة يومين بالاتومبيل

فراجعت الخريطة التي كانت في حقيبتي ووجدت ان سيوه واحة على مائتي ميل الى الجنوب من السلّوم في صحراء ليبيا . فاقترحت على المدير ان اطير بهِ الى سيوه فنصلها في ساعتين فقبل الدعوة شاكراً

نزلنا في سيوه او على مقربة منها على سطح ملحيّ متسع مستوٍ كل الاستواء حتى كأنهُ سطح مائدة من موائد البلياردو والظاهر انهُ كان قبلاً قعر بحيرة من الملح. ولما وقفت الطيارة رأينا قافلة من الجمال مستعدة لاستقبالنا والذهاب بنا الى البلدة وقد علمت بعد نذر ان الاوامر صدرت الى سيوه من السلوم بالتلفون لارسال هذه القافلة الى استقبالنا

وقد كانت سيوه الى زمن قريب ملوثة بجراثيم الملاريا ولكن العناية ببرك المياه الراكدة

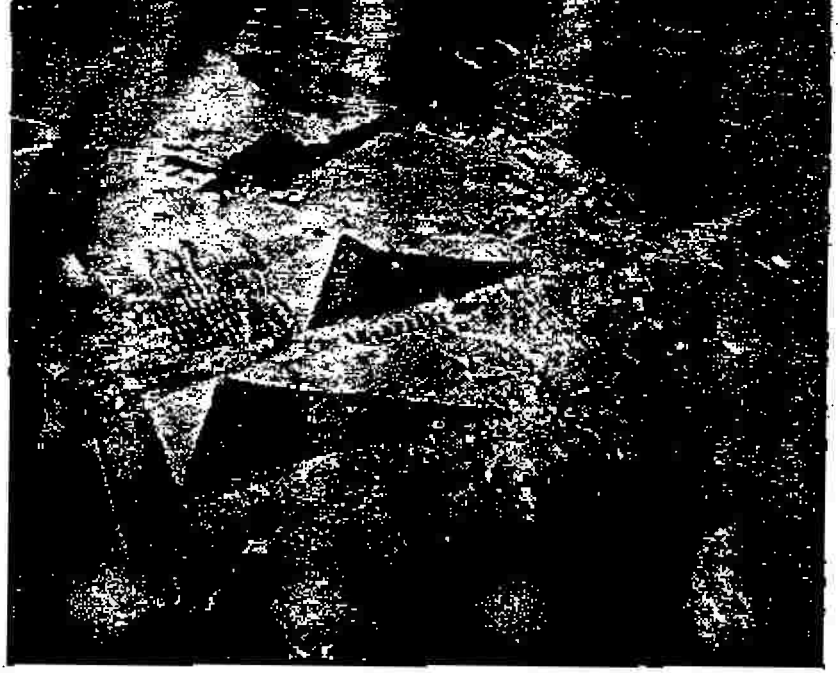

الطريق الكبير ان وما يجاورها كما يرى من الطيارة محلقة

دور العريش كما ترى من طيارة محلقة فوقه . والمربعات التي ترى في الصورة هي أسوار تحيط بالدور وفي الزاوية اليمنى صورة النمر لان كوبهام صاحب هذا المقال — مختلف بوبو ١٩٢٩ : أنظر الصفحة ١٦٣

واصدار الاوامر بتجفيفها او تحريكها مرتين على الاقل كل يوم او صبّ زيت النفط عليها منعت البعوض من التكاثر فيها فزالت الملاريا منها

الصحراء حول سيوه ليست كثباناً من الرمل الناعم بل تراب متحجر وفي كثير من الاماكن ترى الارض مستوية استواء سطح المسجد . وفي اليوم الثاني قبل رجوعنا نقشت الحرف T في الساحة التي نزلنا فيها للدلالة على ان المكان صالح لنزول الطيارات . وقد قيل لي ان هذا الحرف لا يزول قبل انقضاء ٢٠ سنة لجفاف الهواء وعدم وقوع المطر الذي قد يطمس آثاره

شاهدنا في مرسى مطروح بحيرة فحصناعة الماء جميلة المنظر . وقد قيل لي ان في بعض التواريخ ما يؤخذ منهُ ان كليوبطرة ومرقص انطونيوس كان لهما قصر في هذه الناحية . وبعدما طرنا من مرسى مطروح نحو ٣٠٠ ميل وصلنا فجأة الى الجدّ الفاصل بين الصحراء والدلتا الممرعة ولم نسر بضع دقائق حتى رأينا الارض تحتنا خميلة خضراء . ثم رأينا عند الافق قبتين علمنا من شكلهما انهما قبتا هرمي الجيزة الكبيرين فاتجهنا اليهما ولما وصلنا اليهما شاهدنا ايضاً على مقربة منهما الى شرقيهما الجنوبي اهرامات اخرى

من يطر فوق البلاد المصرية يدرك الى اي حدّ مصر ارض النيل وانها لولا هذا النهر العظيم لما كانت مصر على الاطلاق وقديماً قال هيرودتوس « مصر هبة النيل ». وحين تشاهد النيل من الجوّ تحسبهُ نهراً من الخضرة النضرة يسيل في الصحراء القاحلة وفي وسط هذه الخضرة تلمع مياه النيل الفضية كالسيف المصقول

سرنا من القاهرة محاذين النيل الى الاقصر وقبل النزول الى الارض طرنا فوق وادي الملوك وطيبة وهيكل الكرنك وبعد نزولنا الى الارض قضينا اياماً نجول في الاماكن التي شاهدناها من الجوّ فكانت مشاهدتها الاولى مما ساعدنا على ادراك نسبتها بعضها الى بعض

الرحلة من القاهرة الى الاقصر بسكة الحديد تستغرق نهاراً كاملاً او ليلة كاملة ولكننا اجتزنا المسافة بطيارتنا في اقل من اربع ساعات . ومن الاقصر استأنفنا رحلتنا جنوباً فشاهدنا آثار اسنا وادفو حتى بلغنا جزيرة انس الوجود عند الشلال الاول وشاهدنا خزان اسوان العظيم وفي البحيرة التي تكونت وراء الخزان من خزن المياه رأينا هياكل « انس الوجود » مغموراً اكثرها بالمياه وقد كانت حتى بناء الخزان على اليابسة فوق حدّ مياه النيل

كان الصيف قد اقبل بحرّه ولم نشأ ان نتعرض لهُ فيحمى محرك الطيارة ونضطر الى النزول في الصحراء على منأى من العمران فقررنا ان نستأنف سفرنا الى حلفا قبل فجر اليوم التالي فشاهدنا الآثار المصرية على ضفاف النيل واشهرها هيكل ابو سمبل المنقوش

في الصخر الحيّ وقد قام أمام مدخله تمثالان ضخمان لحراسته

ولما بلغنا حلفا عند الشلال الثاني حوّمنا حولها ثلاثاً ورجعنا الى اسوان فبلغناها بعد ما بقينا في الجوّ نحو خمس ساعات فتناولنا طعام الغطور في ساعة متأخرة ولو شاء السائح ان يسافر من اسوان الى حلفا ويعود اليها بالباخرة لاستغرق ذلك نحو اسبوع كامل

وفي عودتنا الى القاهرة طرنا فوق آثار ايدوس واذ نحن طائرون نتمتع بمشاهدة الآثار الضخمة التي تحتنا شعرت بان محرك الطيارة غير منتظم الدوران فادركت في الحال ضرورة النزول الى الارض لاصلاح الخلل وكانت الارض تحتنا خمائل غنّاء تخترقها ترع الري فالنزول بالطيارة فيها محفوف بالخطر ولذلك اتجهت الى الصحراء فنزلنا على اطرافها سالمين ولم يمض على نزولنا دقيقتان حتى انقضّ حولنا جمهور كبير من السكان فخفت على الطيارة ان تصاب بعطل ما من ازدحامهم حولها. ولحسن الحظ لم يلبث شيخ القرية ان جاء ليعرف ما الخبر فطلبت اليه ان يمنع الجمهور عن الازدحام حول الطيارة ففعل والحال اكبت على اصلاح الخلل ولكننا لم نتمكن من استئناف الطيران الى القاهرة فبتنا في قرية قريبة من المكان الذي نزلنا فيه واستأنفنا الطيران صباح اليوم التالي فبلغنا القاهرة حوالي الظهر

ولما كنا في القاهرة عزمنا ان نزور فلسطين فقمنا من مطار هليوپوليس واتجهنا الى البحر الابيض المتوسط على حدود الصحراء الشرقية . وبعدما طرنا نحو ساعة ونصف ساعة دهشت لما رأيت باخرة تسير في الصحراء وتخترق الرمال فهبطت قليلاً واقتربت من الباخرة فاذا هي تسير في ترعة السويس التي لم ارها لاني نظرت اليها من مكان منحرف فخفيت مياهها وراء كثبان الرمال

وكانت هذه الرحلة الاولى التي رحلتها الى فلسطين فخطرت على بالي اقوال اسفار التوراة التي يؤخذ منها ان اسباط بني اسرائيل قضوا اربعين سنة في صحراء سينا قبلما جاءوا فلسطين التي تفيض لبناً وعسلاً فجعلت اراقب البلاد التي تحتنا كيف تتحول الصحراء القاحلة الى ارض قليلة الخصب فيها بعض العشب والشجر ثم الى جنان فلسطين الغنّاء . وطرنا فوق القدس الشريف يوم الجمعة الحزينة وفي يدنا توراة نستدل منها على الاماكن المشهورة وبعد ما حومنا فوق المدينة اتجهنا الى قرية بيت لحم ومنها الى وادي البحر الميت الذي يبلغ انخفاض قعره عن سطح البحر ١٣٠٠ قدم . ثم استأنفنا الطيران الى وادي الاردن فبحر الجليل ثم اجتزنا الاكام الى الناصرة ومنها الى الرملة حيث حططنا رحالنا لنزور الاماكن التي طرنا فوقها فلما زرناها رسخ في اذهاننا ان الطيران فوق بلاد قبل التجول فيها يمكن السائح من فهم جغرافيتها وتاريخها فهماً صحيحاً